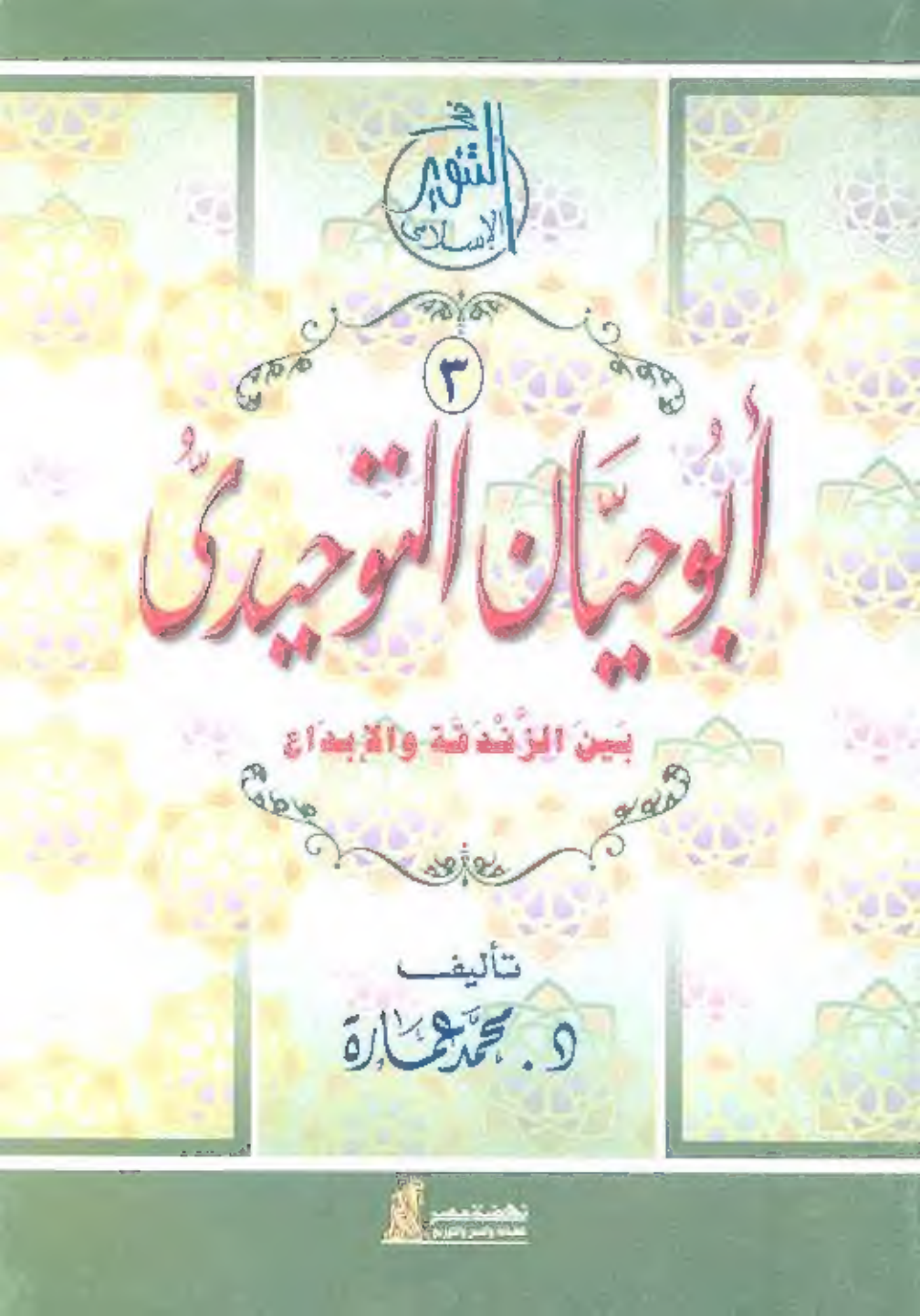
التنوير الإسلامي
٣
أبو حيان التوحيدي
بين الزندقة والإبداع
تأليف
د. محمد عمارة

أبو حيان التوحيدي

بين الزندقة.. والابداع

تأليف
د. محمد عمارة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم السلسلة : في التنوير الاسلامى
اســـم الكتاب : أبو حيان التوحيدى
تـأليـــــف : دكتور / محمد عمارة
تاريخ النشـــر : مارس ١٩٩٧
رقم الإيـــداع : ١٤٢٠٥ / ٩٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-14-0547-0
النـاشـــــر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركـز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس : ٠١١/٣٣٠٢٩٦

مركـز التـوزيـــع : ١٨ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٩٨٣٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ - فاكس ٠٢/٥٩٠٢٣٩٥

إدارة النشـــــر : ٣١ ش أحمد عرابى (برج النهضة) المهندسين - القاهرة
ت : ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

كان عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤هـ، ٦٩٩ - ٧٦١م) ثانى اثنين - مع واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ، ٧٠٠- ٧٤٨م) - بلورا وقادا تيار الاعتزال، وصاغا مقولات الفلسفة العقلانية الإسلامية.. وكان قائدا فى الثورة التى قوضت بناء الدولة الأموية.. وفى المعارضة للدولة العباسية، تهتز له قوائم العروش، ويحسب له الخلفاء كل حساب..

وفى ذات الوقت، كان عمرو بن عبيد العابد، الذى حج من البصرة إلى بيت الله الحرام، بمكة المكرمة، أربعين حجة فى أربعين عاما، سيرا على قدميه، ومن خلفه راحلته، التى يقودها، حاملا عليها الضعفاء والفقراء!.

وكان الزاهد، الذى تخشع قلوبنا أمام دعائه لربه الذى كان يقول فيه: «**اللهم اغننى بالافتقار إليك!.. ولا تفقرنى بالاستغناء عنك!.. وأعنى على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة**»!..

ومع هذا الذى كان عليه عمرو بن عبيد - الذى رثاه وصلى عليه الخليفة أبو جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨هـ، ٧١٤ - ٧٧٥م).. وهى سابقة لم تتكرر مع غيره - لأن الكل كان «يطلب صيدًا.. إلا عمرو بن عبيد» - كما قال المنصور! -.. مع كل هذا، وجدنا الخصومة الفكرية تذهب بأهل الحديث والسلفية النصوصية إلى حيث تصنفه فى «أهل الأهواء»، حتى ليقول فيه الإمام الحنبلى «سيد الحُفَّاظ» يحيى بن معين (١٥٨ - ٢٣٣هـ، ٧٧٥- ٨٤٨م): «**إنه كان من الدهرية الذين يقولون: إنما الناس مثل الزرع**»!!..

وهذا درس بليغ يدعونا إلى التماس أفكار المفكرين فى مقولاتهم

ومقالاتهم التى كتبوها هم، وليس فيما كتبه عنهم الآخرون، مهما كان احترامنا لهؤلاء الآخرين..

لكن هذا الدرس - الذى تصل بداهته وقوته إلى حيث يغنيان عن طول الكلام فيه - كثيرا ما يتخلف الوعى به والالتزام بتطبيقاته فى الكتابة عن مقولات ومقالات كثير من الأعلام والمفكرين، فيتوارث الخلف عن السلف الكثير من الأباطيل والأوهام، التى ألصقها الخصوم بخصومهم الفكريين..

والنموذج الذى تطمح هذه الصفحات إلى سبر أغوار الحقائق والأوهام التى شاعت عنه، والتصقت به - قديما وحديثا - رغم كثرة ما كتب عنه - هو أبو حيان التوحيدى، على بن محمد بن العباس (٣١٠ - ٤١٤هـ، ٩٢٢ - ١٠٢٣م).. والذى نريد عرض آراء الآخرين فيه على ما فى مصنفاته من آراء.. بل وتحقيق ماله وما ليس له فى هذه المصنفات!..

* * *

فكما اختلف القدماء فى تاريخ ميلاد التوحيدى ما بين عام (٣١٠هـ ٩٢٢م) وعام (٣٢٠هـ ٩٣٢م) اختلفوا فى الموطن الذى نشأ فيه، فقيل: شيرازى.. وقيل: واسطى.. وقيل: نيسابورى.. وقيل: بغدادى.. بل لقد اختلفوا حتى فى تاريخ وفاته ما بين عام (٤٠٠هـ ١٠٠٩م) وعام (٤١٤هـ ١٠٢٣م)..

وإذا كانت آثار الخلاف والاختلاف فى الموطن وفى تواريخ الميلاد والوفاة طبيعية - وفق ملابسات ذلك العصر - وهى مما لا يقلب الموازين فى تحديد مكانة المفكر ضمن تيارات الفكر ومذاهب التراث... فإن الخطر الأكبر إنما يأتى إذا كان الخلاف والاختلاف فى عقائد المفكر الذى ندرسه.. ويصبح هذا الخطر خللا وكارثة إذا نحن

ظللنا نلتمس عقائد ومذاهب مفكرينا فيما كتبه عنهم القدماء، من مصنفي المقالات والطبقات، وليس في الفكر الذي أودعه هؤلاء المفكرون المصنفات التي صنفوها!..

وسيظل غريبا ومعيبا ألا تعي دراساتنا الحديثة والمعاصرة «الأبعاد الإيديولوجية» في التقويمات الفكرية التي جاءت عن أعلامنا في كتب المقالات وموسوعات الطبقات..

ولعل نموذج أبي حيان التوحيدي أن يكون درسا بالغ الدلالة في هذا المقام..

لقد بدأ حديث القدماء عن عقيدة التوحيدي وفكره ومذهبه، باتهام ابن فارس أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (٣٢٩ - ٣٩٥هـ؛ ٩٤١ - ١٠٠٤م) للتوحيدي بالكذب وقلة الدين والورع، والقدح في الشريعة والقول بالتعطيل - (أي نفي الصفات عن الله - سبحانه وتعالى -)[1]

وعلى درب هذه الإدانة سار ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين (٥١٠ - ٥٩٧هـ؛ ١١١٦ - ١٢٠١م)، الذي قال: «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، والتوحيدي، وأبو العلاء المعري. وشرهم على الإسلام التوحيدي، لأنهما صرحا، وهو مجمج - (لم يُبَيِّن) - ولم يصرح»[2]!..

---

(١) السبكي (طبقات الشافعية الكبرى) جـ ٥ ص ٢٨٧. تحقيق: د. محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م

(٢) انظر مقدمة تحقيق (المقابسات) ص ٨ - تحقيقها: محمد توفيق حسين. طبعة بيروت سنة ١٩٨٩م - وهو ينقل عن السيوطي (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) ص٣٤٩. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦هـ.

ومع ابن فارس وابن الجوزى سار الحافظ الذهبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧٣ - ٧٤٨هـ ، ١٢٧٤ - ١٣٤٨م) الذى رمى التوحيدى بسوء الاعتقاد والضلال والإلحاد[١] . .

وعلى ذات الدرب سار الخوانسارى ، محمد باقر الموسوى (١٢٢٦- ١٣١٣هـ ، ١٨١١ - ١٨٩٥م) ، الذى قال : «كان التوحيدى كذابا ، قليل الورع . .»[٢]

وفى مقابل هذه النماذج لاتهام التوحيدى فى عقيدته ، والتجريح لمذهبه ، نجد موقف ابن النجار ، محب الدين ، أبو عبد الله ، والذى عاصر ابن الجوزى ، وسمع منه ، لكنه خالفه فى رأيه ، فقال عن التوحيدى : «كان أبو حيان فاضلا لغويا نحويا شاعرا ، له مصنفات حسنة ، وكان فقيرا صابرا ، متدينا ، حسن العقيدة»[٣]

وعلى درب الثناء على التوحيدى ، ورفض اتهامه فى اعتقاده سار ياقوت الحموى (٥٧٤ - ٦٢٦هـ ، ١١٧٨ - ١٢٢٩م) ، الذى ارتفع بالتوحيدى إلى الذروة ، فقال : إنه «شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ،

---

(١) الذهبى (ميزان الاعتدال) جـ ٤ ص ٥١٨ . تحقيق : على البيجاوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م . انظر : د . أيمن فؤاد سيد . مجلة (فصول) - المجلد الرابع عشر ، العدد الثالث - خريف سنة ١٩٩٥م .

(٢) د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٢٦ . طبعة دار المعارف - القاهرة - سلسلة «نوابغ الفكر العربى» - والنقل عن (روضات الجنات) جـ ٤ ص ٢١٥ .

(٣) مقدمة تحقيق (المقابسات) ص ٨ - والنقل عن ابن حجر العسقلانى (لسان الميزان) جـ ٦ ص ٣٧٠ طبعة الهند سنة ١٣٢٩هـ .

وإمام البلغاء . . فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن ، واسع الدراية والرواية »[1]

ومع المدافعين عن التوحيدى ، وقف السبكى ، تاج الدين ، عبد الوهاب بن على (٧٢٧ - ٧٧١هـ ، ١٣٢٧ - ١٣٧٠م) ، الذى تحدث عن التوحيدى - وقد ترجم له فى طبقات الشافعية - فقال قول الباحث فى القضية الخلافية : «ولم يثبت عندى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه . ووقعتُ على كثير من كلامه ، فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل »[2]

أما الحافظ ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين أبو الفضل (٧٧٣ - ٨٥٢هـ ، ١٣٧٢ - ١٤٤٩م) فلقد اكتفى بأن نقل آراء الذين اتهموا التوحيدى والذين برءوه . . نقل قول الذين قالوا : «إنه كان كذابا ، قليل الدين والورع ، مجاهرا بالبهت ، تعرض لأمور جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل» . . وقول الذين قالوا : «إنه كان فاضلا فقيرا ، صابرا ، متدينا ، حسن العقيدة»[3] . .

تلك هى «خارطة» آراء الأقدمين فى أبى حيان التوحيدى ، انتقلت متناقضاتها الحادة - ما بين الزندقة والتصوف - مرورا بالفلسفة والكلام والاعتزال - إلى مؤلفات المعاصرين عن

---

(١) المرجع السابق . ص ٨ - والنقل عن (معجم الأدباء) جـ ١٥ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

(٢) د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٥٣ - والنقل عن (طبقات الشافعية) جـ ٥ ص ٢٨٧ .

(٣) مقدمة تحقيق (المقابسات) ص ٨ - والنقل عن (لسان الميزان) جـ ٦ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

التوحيدى . . مع غيبة المنهج الذى يفسر هذه المتناقضات فى ضوء «العامل المذهبى» لأصحابها . . والذى ينتقل بمنطلقات التقويم للرجل من آراء كتاب المقالات والتراجم فيه ، إلى مقالاته هو فيما صنف من مؤلفات ! . .

ذلك أن الوعى بدور «العامل المذهبى» لأصحاب هذه الآراء ، ودور التكوين الفكرى والتجربة الحياتية لكل منهم ، كفيل بحل ألغاز هذه المتناقضات . .

فابن فارس ، الذى بدأ سلسلة اتهام التوحيدى فى عقيدته . . كان معاصرا لأبى حيان ، يساكنه فى مدينة «الرى» ، حيث كان الوزير الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ ، ٩٣٨ - ٩٩٥م) . . وكان ابن فارس أستاذا للصاحب بن عباد . . بينما كانت للتوحيدى تجربة مرة مع الصاحب ، الذى أراد حبس التوحيدى على مكانة «الناسخ - الوراق» ، وحال بينه وبين تجاوز هذه المهنة - التى كان يسميها التوحيدى «مهنة الشؤم» ! - وانتهت تلك التجربة المرة بفرار التوحيدى من وعيد ابن عباد ، الذى هجاء التوحيدى هجاء لا أخلاقيا - مع ابن العميد - فى كتابه (مثالب الوزيرين) ! . .

هذا هو موقع ابن فارس من أبى حيان . .

أما ابن الجوزى ، فكان حنبليًا . . من أهل الأثر . . الذين يضيقون بأهل الرأى . . فما بالنا إذا كان هذا «الرأى» الذى امتلأت به مصنفات التوحيدى جامعا لآراء الفلاسفة والمناطقة - على مذهب أرسطو - وإخوان الصفا ، الذين مزجوا الأفلاطونية بالإشراقية الباطنية الغنوصية بالإسلام ؟! . .

ومثل ابن الجوزى - فى التزام مذهب المحدثين ، أهل الأثر - كان الحافظ الذهبى - رغم أنه كان شافعيا فى الفقه - علم الفروع - . .

أما الخوانساري ، فلقد جعله تشيّعه خصما للتوحيدى ، الذى اخترع «رسالة السقيفة» ، مفضلا فيها أبا بكر الصديق على على ابن أبى طالب - رضى الله عنهما - وهو ما يناصبه الشيعة كل وأشد العداء - ! . .

أما الذين دفعوا عن التوحيدى اتهامات الحنابلة وأهل الأثر والمحدّثين . . فمنهم ابن النجار ، الذى كان شافعى المذهب ، كالتوحيدى . . وكان مؤرخا ، ليس طرفا فى صراعات المتكلمين ، فهو إلى أهل «الرأى» أقرب . . وكذلك كان السبكى - الشافعى ، الذى أرخ لطبقات الشافعية - ومنهم التوحيدى - . . والذى - وهذا هام جدا - عانى من تعصب شيوخ عصره ، الذين اتهموه هو الآخر فى عقيدته !- . . فقرأ التوحيدى ، وكتب مدافعا عن عقيدته كتابة الباحث الخبير ، عندما قال : «ولم يثبت عندى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه ، ووقعت على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل . .» ! . .

أما ياقوت الحموى ، الذى قرأ الكثير من كتابات التوحيدى - وكان له فضل حفظ العديد من هذه الكتابات - فلقد كانت قراءاته هذه مصدرا للصورة المشرقة التى قدمها عن جهد التوحيدى ومكانته . . كما وقفت وراء ذلك الإنصاف أوجه للشبه بين ياقوت وبين أبى حيان . . فكلاهما لم يكن صاحب حسب ونسب - فياقوت كان رقيقا أعتقه سيده - وأبو حيان كان من غمار الناس ، حتى أنه كان - كما قال ياقوت «عمدة لبنى ساسان» - أى قائدا لجماعة من المتسولين[1] !! - . . وكانا - التوحيدى وياقوت -

(١) (معجم البلدان) جـ ١٥ ص ٥ .

يعيشان من التكسب بحرفة «الورقة» ونسخ المخطوطات» وكان أيضا - من أهل الجمع والرواية للأفكار والأخبار، أكثر مما كان من أهل الإبداع والاجتهاد والابتكار.

تلك هي ثمرات الوعي «بالخارطة المذهبية والجنائية» لأصحاب تلك الآراء المتناقضة والمتضادة، التي تجاوزت في كتابات القدماء عن أبي حيان التوحيدي، والتي انحدرت من كتب القدماء إلى كتابات المعاصرين، دون تفسير لهذا التناقض والتضاد!

* * *

وإذا كانت تلك هي ثمرة الوعي بالعامل المذهبي والخبرة الجنائية والتكوين الفكري لكتاب الترجمات، فإن الفيصل الأول والأهم في تحقيق الاتهامات، بل والمناقب والفضائل، إنما هو لكتابات الأعلام الذين توجه إليهم الاتهامات أو يكال لهم المدائح وآيات الثناء.

وهذا هو الذي يطمح إليه هذه الدراسة، وصولا إلى فصل المقال فيما أحاط بالتوحيدي من حقائق ومن أكاذيب وأوهام.

فماذا تقول كتابات التوحيدي عن الاتهامات التي اتهم بها؟ وعن صفات وملكات المديح والإطراء التي أضفيت عليه؟ نعلن بينهم بذلك في التنبيه على عناصر منهاج موضوعي للتعامل مع التراث.

هل كان التوحيدي زنديقا ؟ !:

كان التوحيدي [illegible] وجامعا للروايات والأفكار والشواهد والمأثورات، أكثر مما كان [illegible] خلاف [illegible] وكانت إضافاته واستنباطاته وصناعاته تميزه عن غيره من [illegible] لم تمتلكه مواهبه الأدبية والفنية التي تميز بها. ومن هنا تأتي ضرورة التمييز ونحن نبحث عن عقيدته في مؤلفاته ومصنفاته بين إضافاته وبين رواياته عن الآخرين. وحسن الحظ فلقد كان الرجل دقيقا وأمينا عندما نسب [illegible] والمأثورات والأفكار إلى أصحابها تميز بها عما له من إضافات واستنباطات.

وللأسف الشديد فإن هذا المنهاج البديهي في التمييز بين إضافات الرجل التي تحسب له وعليه وبين الروايات التي رواها وجمعها وصنفها هذا المنهاج لم يلتفت إليه، ولم يلتزم به الذين اتهموه في عقيدته قديما ولا الذين [illegible] القدماء في عقيدته، وفي مكانته، من الدارسين المعاصرين!

فهل كان التوحيدي في إضافاته واستنباطاته زنديقا؟

إن إبداعات الرجل تنفي هذا الاتهام على وجه القطع واليقين فهو لا يقف، فقط، عند الإيمان بالله سبحانه وتعالى ولا عند البرهنة على وجوده، وعلى إبداعه لهذا الوجود [illegible] وإنما يتنبه على حدود العقل ومحدوديته في العلم الإلهي فيقول: فالله الذي لا سبيل للعقل أن يدركه أو يحيط به أو يحده وحدانا، وبين وأخرى أن يمسك عنه عجزا واستجداء وتضاؤلا واستعفاء لا بما وقع الإذن به من جهة صاحب الدين الذي هو مالك أزمة العقول ومرشدها إلى السعادات ووافقها عند الحدود وزاجرها عن التخطي إلى ما لا يحو

فعلى هذا قد وضح أن الصمت في هذا المكان أعود على صاحبه من النطق [illegible] والتظاهر [illegible] في موضعه [illegible] كيف [illegible] ولم [illegible] فهو مؤمن [illegible] الإيمان بعجز العقل عن أن يكون حاكما في الإلهيات والغيبيات.

[illegible] الذي هو تكليف إلهي [illegible] هو الأساس [illegible] في الخلق وفي سائر [illegible] [illegible] كيف تصح [illegible] وكيف [illegible] الفتوة [illegible] الدين تكليف من الله تعالى، [illegible] أخلاق [illegible] ولا خلق لا ما هدته الدين ولا دين لا ما هدته الخلق [illegible] فالدين هو العمود والدعامة في عمارة [illegible]

فالدين تكليف إلهي ووحي سماوي [illegible] ولا خلق [illegible]

---

(١) [illegible] بكسر الهمزة [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م

(٢) [illegible] ج٣ ص٢٤ [illegible] ٢٥ [illegible] الزين طبعة القاهرة ١٩٤٤م

(٣) [illegible] ص٥٧ [illegible] ٥٨ [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م

(٤) الإمتاع والمؤانسة ج٢ ص١٩٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٢م

ولا قيام للدنيا ولا سعادة في الآخرة إلا بالدين [illegible] والدين عند التوحيدي ليس شجرة جنى ولا هو فقط [illegible] وشعائر وعبادات [illegible] وهو أيضاً شريعة حاكمة [illegible] والسياسة والاجتماع الإنساني [illegible] وهو في تقرير هذه الحقيقة يتحدث عن «الشريعة التي جعلها الله تعالى [illegible] ومضافة إلى الرسول ﷺ الذي ختم الله عز وجل [illegible] والرسل» «وكيف أن الناظر في أحوال الناس ينبغي أن يكون قائلاً بأحكام الشريعة حاملاً للصغير والكبير على طرائقها المعروفة لأن الشريعة سياسة الله في الخلق [illegible] سياسة الناس [illegible] على الشريعة [illegible] من السياسة كانت ناقصة [illegible] عريت من الشريعة كانت ناقصة [2]..»

وإذا كان الدين عند التوحيدي هو [illegible] والآخرة وشريعته الإلهية هي قانون سياسة الله في الخلق [illegible] هم الإنسان بالدار الآخرة عند التوحيدي [illegible] لأنها هي المعاد والمآب [illegible] فهي خير وأبقى [illegible] والإنسان في هذا العالم [illegible] في [illegible] من كل علم [illegible] وحساب والنجوم والطب وسائر أجزاء الفلسفة [illegible] على غاية كل علم يتعلق بالأبدان والآراء والمقالات والنحل [illegible] آخر مطالبه أن يعلم معاده ويعرف منقلبه [illegible] في [illegible] كل حال عليّة، وكل دولة سنية [illegible] والثروة والنشر والعزة والأمر والنهي [illegible] على أصناف [illegible]

[illegible] ص ٣٢٩ [illegible]

التوحيدي، ص٥٨

٢) [illegible] (المؤانسة) ج ٢ ص٣٣

شهوة ولده، وبلوغ كل إرادة وأمنية، فإن آخر ما يقترحه أن يقف على ما يتحول إليه، ويصير مرتهناً به ومفكوكاً منه، فقد صار النظر في هذه الخاصة والخالصة من أشرف ما في قوة الإنسان، وأعلى ما في همته، وأعظم فوائده[1]...

فكفة الآخرة عند الإنسان هي الأرجح على ما في الدنيا من ثروات وسلطات، وإذا قامت ثقافة الإنسان على علوم عالمي الغيب والشهادة، فإن اهتمامه «بالمصير» أكبر من اهتمامه «بالمسير»!.

ولم يكن التوحيدي، إزاء الدين والدين، مجرد «مفكر» يتحدث «بالمنطق» عن ضرورة من ضرورات سياسة الدنيا وتدبير الاجتماع الإنساني، وإنما كان على المستوى الإنساني والذاتي متعلقاً بحبال الدين طلباً لنجاته يوم الدين! فهو يتضرع إلى الله قائلاً: «جعلنا الله عز وجل - يوم الفزع الأكبر في زمرة رسوله ﷺ كما جعلنا من أمته، ورزقنا شفاعته، كما ألهمنا طاعته بمنه وجوده[2]».

ولقد كانت ثقته في الله بلا حدود، ورجاؤه في عفوه ورحمته في مستوى اليقين، حتى أنه، في أحرج اللحظات، وعندما كان يحتضر، التف حوله جمع من عارفيه ودونه، فقالوا: وقد عاينوا قرب لقائه لمولاه: «اذكروا الله، فإن هذا مقام خوف، وكل يسعى لهذه الساعة، وجعلوا يذكرونه ويعظونه»، فما كان من

(١) (المقابسات) ص ٣٥٤

٢) البصائر والذخائر، ج ٥، ص ٣٦٩، نظر د. إبراهيم الكيلاني (أبو حيان التوحيدي) ص ٩٨

التوحيدى إلا أن «رفع رأسه إليهم وقال: كأنى أُقدم على جندى أو شرطى! إنما أقدم على رب غفور ...» وصعدت روحه إلى بارئها، فى لحظة من لحظات الثقة فى عفو الله!

فهل هناك مجال للقول بأن صاحب هذا «الفكر» وهذا «الموقف» كان زنديقا، فضلا عن أن يكون شر زنادقة الإسلام؟! أم أنه «ضيق أفق التعصب المذهبى» هو الذى رمى التوحيدى بهذه الاتهام؟!.

---

١) ابن حجر العسقلانى: لسان الميزان، جـ ٦، ص ٣٧٠. انظر: حسن المنطاوى: الله والإنسان فى فلسفة أبى حيان التوحيدى، ص ٨٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩.

وهل كان التوحيدي فيلسوفا ؟:

وإن لم يكن التوحيدي زنديقا يبطن الكفر ويظهر الإسلام فهل كان تفلسفه السبب في رميه بالزندقة من قبل الذين لا يميزون بين الزندقة والتفلسف وهم تيار في ثقافتنا وتراثنا ؟

إن عددا من الدارسين المعاصرين للتوحيدي، قد أضفوا عليه من باب المدح لا القدح صفة الفيلسوف فهو عند البعض «كان فيلسوفا بحث عن الحقيقة، وأثار التساؤل إزاء جميع المقولات الصعبة أو المحرمة في زمانه وكان له جواب جريء عميق وهو أول فنان وفيلسوف فن في تاريخ الإبداع العربي استطاع أن يقدم فلسفته الجمالية عن خبرة جمالية إبداعية، واستطاع أيضا أن يلخص مفهوم فلسفة الفن عند العرب في القرن الرابع الهجري[1]».

كما كان موضوعا لرسالة ماجستير في الفلسفة تحدثت عن «أن صلة التوحيدي بالفلسفة والفكر والقضايا الفلسفية صلة وثيقة وأصيلة بمعنى أن له في هذا الميدان علما واحاطة واهتماما وهو فيلسوف وجودي من حيث ارتباط فكره بحياته[2]».

فهل حقا كان التوحيدي فيلسوفا حتى يجوز لنا أن نمدحه بذلك ؟ أو أن نقدح البعض في اعتقاده لذلك أيضا ؟!

إن التوحيدي نفسه هو الذي يقرر أنه لم يكن من أهل هذا الميدان فكتابه «المقابسات» والذي هو محاورات فلسفية، تسود فيها

(١) د. عفيف البهنسي (فلسفة الفن عند التوحيدي) ص ٣٤، ٣٥ طبعة دمشق ١٩٨٧ م

(٢) الله والإنسان في فلسفة أبي حيان التوحيدي) ص ١٠، ١١

الأفلاطونية الحديثة. فلسفة الحدس الصوفي جميعه نقول ومأثورات وروايات يرويها التوحيدي منسوبة إلى فلاسفة عصره، الذين عاشرهم، ونسخ مؤلفاتهم، ودون حواراتهم، وكتب أجوبة الأسئلة التي وجهها إلى بعضهم. وهو قد دوّن هذه المحاورات الفلسفية استجابة لمن طلب منه ذلك، وأعلن أنه مجرد راوية ومدون لآراء الفلاسفة، وجامع لها. وفي ذلك يقول: مخاطبا من طلب منه هذا الجمع والتدوين: «أطال الله حياتك، لم يذهب عليّ حظي في البدار إلى رسمك، والسرع إلى طاعتك، فيما أشرت إليه، وحصصت عليه، من تصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك عن مشايخ العصر الذي أدركته والزمان الذي لحقتهم فيه. فأقبلت أتألف ما شرد منها، وأنظم ما انتثر منها، وأرقع بجهدي وطاقتي شملها، وأحلّي بوسعي عطلها».

وأكثر من هذا في جسم هذه القضية نجده في كتابه (الصداقة والصديق) ينفي أن يكون من أهل هذا الفن وذلك المبدأ. فبعد أن ينقل عن أبي سليمان السجستاني (٣٧٢هـ ٩٨٣م) وهو من الفلاسفة المعاصرين الذين ينقل عنهم التوحيدي، في كتبه «مئات الصفحات»[1] بعد أن ينقل عنه كلاما في الصداقة، يمسك عن أن يدون في كتاب (الصداقة والصديق) ما قاله أبو سليمان من الفلسفة، لأنه بعبارة التوحيدي: «لا يدخل في هذه الرسالة» و«لأنه من الفلسفة، التي هي موقوفة على أصحابها، لا تزاحمهم عليها، ولا تماريهم فيها»[2].

فكما لم يكن الرجل «زنديقا» فإنه لم يكن «فيلسوفا»!

(١) (المقابسات) ص ٥٤ - ٥٦.

(٢) (الصداقة والصديق) ص ٥٦.

وهل كان معتزليا ؟:

وإذا لم يكن التوحيدي «زنديقا» ولا «فيلسوفا» فهل كان "معتزليا" ؟ حتى يذهب الذين صنفوا المعتزلة في أهل الأهواء والزندقة إلى اعتباره زنديقا، بل وأشر زندقة الإسلام ؟! أو يذهب الذين يحتفون بالعقلانية الاعتزالية إلى الإشادة به كواحد من المتكلمين المعتزلة ؟؟..

لقد ذهب هذا المذهب من القدماء طاش كوبري زاده (٩٠١-٩٦٨هـ ٤٩٥-١٥٦١م) الذي قال: «كان التوحيدي معتزليا يسلك مسلك الجاحظ، شيخ الصوفية»[1] وفي هذا القول تناقض غريب على عالم مثل طاش كوبري زاده، ولعله من أخطاء النساخ التي قرأت على قصة المحققين: إذ ما علاقة الاعتزال بالتصوف ؟ وما علاقة الجاحظ بمشيخة الصوفية ؟

كما ذهب هذا المذهب القائل باعتزال التوحيدي كثير من المعاصرين[2] بل ونسبوا التوحيدي إلى الاعتزال، مع استبعاد الصاحب بن عباد من هذا الاعتزال فقالوا: «كان التوحيدي يتفلسف على طريقة المعتزلة، ميالا إلى الجدل والأبحاث العقلية، بخلاف الصاحب بن عباد، الذي كان يحب العلوم الشرعية، ويبغض الفلسفة وما يشبهها من علوم الكلام[3]» وهذا نموذج منهج الخلط الذي ساعد عليه الانطلاق من آراء كُتّاب الطبقات، لا من مصنفات الذين يدرس مقالاتهم ومذاهبهم ولو وعوا

(مفتاح السعادة) جـ١ ص ٢٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م

٢) انظر: على سبيل المثال [illegible] الكيلاني [illegible] ص ٥٥

٣) المرجع السابق ص ٢٥

كتابات التوحيدي لعلموا أن تأثره بالجاحظ إنما كان في الأسلوب لا في الأصول الخمسة للاعتزال..

فالمعتزلة لم يذكروا اسم التوحيدي في طبقات رجالهم، بينما ذكروا اسم الصاحب بن عباد[1] وأصالة الصاحب في فكر الاعتزال تتعدى وجود اسمه في كتب طبقات المعتزلة، لأن له كتبا شاهدة على مذهبه هذا، ومنها (إبانة عن مذهب أهل العدل)[2].

بل إن التوحيدي الذي عاش في «الري» معاصر للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (٤١٥هـ ١٠٢٤م) الذي مثل صحوة الاعتزال بعد اضطهاد المتوكل العباسي (٢٠٦ - ٢٤٧هـ ٨٢١ - ٨٦١م) لفكرهم وأعلامهم، دون أن ترد في كتاباته إشارة إلى هذه الصحوة الاعتزالية وأمامها هو التوحيدي الذي يشهد بأن الصاحب بن عباد كان على مذهب المعتزلة، فعندما سأله الوزير ابن سعدان (٣٧٥هـ ٩٨٥م)

- «إني أريد أن أسألك عن ابن عباد» يجيب التوحيدي:

«إن الغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجنة بطرائقهم، وهو يدين بالوعيد[3]».

فأن يقال عن التوحيدي إنه كان معتزليا، بخلاف الصاحب بن عباد، الذي كان يحب العلوم الشرعية، لا علم الكلام، هو

---

١ - انظر: أبو القاسم البلخي، القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، الحاكم الجشمي (فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٦١

تحقيق: فؤاد سيد، طبعة تونس سنة ١٩٧٢م

٢ - انظر طبعة بغداد سنة ١٩٦٣م، بهذا الكتاب، تحقيق محمد حسن الزيات

٣ - الإمتاع والمؤانسة، جـ ١، ص ٥٣ - ٥٥، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩م

كلام عربي، فضلا عن أنه يقيم تناقضا عربيا بين الاعتزال وبين العلوم الشرعية، وبين المعتزلة وعلم الكلام، الذين كانوا هم رواته وواضعيه؟

* * *

وفوق كل ذلك، فإن مذهب التوحيدي في القضاء والقدر، الجبر والاختيار، وفي العقل والعقلانية، يجعله خارج دائرة الاعتزال بلا جدال!.

فهو في قضية الجبر والاختيار لا يقف موقف المعتزلة مع «الاختيار»، وإنما يقف موقف من تكافأت لديهم أدلة «الجبر» مع أدلة «الاختيار»، وهو ما لا يقول به معتزلي على الإطلاق.

فعندما يسأل الوزير ابن سعدان التوحيدي، فيقول:

«كنت حكيت لي أن العامري، أبو الحسن العامري (٣٨١هـ ٩٩١م)، صنف كتابا عنوانه (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) فكيف هذا الكتاب؟» يأتي إجابة التوحيدي، معبرة عن تكافؤ أدلة كل من الجبر والاختيار لديه، فيقول:

«هذا الكتاب رأيته بخطه عند صديقنا وتلميذه أبي القاسم الكاتب، ولم أقرأه على العامري، ولكن سمعت أبا حاتم الرازي يقرؤه عليه.

وهو كتاب نفيس، وطريقة الرجل قوية، ولكنه ما أنقذ البشر من الجبر والقدر، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما، إن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأواني من معدن الإلهيات، أقر بالجبر، وعرى نفسه من العقل والاختيار والتصرف والتصريف، لأن هذه وإن كانت ناشئة من ناحية البشر، فإن منشأها الأول إنما هو من الدواعي والبواعث والصوارف والموانع التي تنسب إلى الله الحق، فهذا هذا.

فأما من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسبين الفاعلين المُحدثين اللائمين الملومين المكلفين، فإنه يعلقها بهم ويلصقها برقابهم، ويرى أن أحدا ما أتى إلا من قبل نفسه وبسوء اختياره وبشدة تقصيره وإيثار شقائه، والملحوظان صحيحان، واللاحظان مصيبان، لكن الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف، لأنه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية[1] ...»

فالقول بكل من الجبر والاختيار عند التوحيدي صحيح «الملحوظان صحيحان واللاحظان مصيبان» وهذا ما لا يقول به أحد من أهل الاعتزال.

وكذلك رأي التوحيدي في العقل ومقامه لا يقول به أهل الاعتزال، فالمعتزلة يجعلون الأدلة أربعة، لا ثلاثة، فهي على هذا الترتيب: العقل، والكتاب، والسنة، والإجماع[2] مع التنبيه على أن تقديم العقل على الكتاب والسنة إنما هو «تقديم ترتيب»، لأنه هو سبيل النظر والاجتهاد فيهما، وليس «تقديم تشريف وتعظيم» وليس هكذا رأي التوحيدي في العقل والعقلانية.

فهو وإن تحدث عن العقل باعتباره «خليفة الله، القابل للفيض الخالص الذي لا شوب فيه ولا قذى، وإن قيل: هو نور في الغاية لم يكن ببعيد، وإن قيل: إن اسمه مُغْنٍ عن نعته لم يكن بمنكر[3] ...»

---

(١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣

(٢) (فصل الاعتزال وصفات المعتزلة) ص ١٢٧

(٣) الإمتاع والمؤانسة، جـ ٣ ص ٦

لا أنا نجد قلق موقفه من العقل عندما يقول: «... والعقل سريع الحول (التحول) - خفي الخداع[1]»!

بل ونراه يقول بما لا يقول به معتزلي، عندما يفضل منهاج «أهل الحديث»، بل و«إيمان العجائز» على منهاج المتكلمين وعقلانية العقلانيين وتأسيس الإيمان على البراهين... فيقول عن طريقة المتكلمين: «إن الطريقة التي التزموها وسلكوها لا تفضي بهم إلا إلى الشك والارتياب، لأن الدين لم يأت بكمٍّ وكيف في كل باب، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر، والقلب الخالي من الشبهة أسلم من الصدر المحشو بالشك والريبة، ولم يأت أحد بخير قط، وقد قيل: من طلب الدين بالكلام الجد، ومن تتبع غرائب الحديث كُذب، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر، وما شاعت هذه الوصية حرفاً، بل بعد تجربة كررها الزمان، وتطاولت عليها الأيام، يتكلم أحدهم في مائة مسألة ويورد مائة حجة ثم لا يرى عندهم خشوعاً ولا رقة، ولا تقوى ولا دمعة، وإن كثيراً من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجون ولا يناظرون ولا يكرّمون ولا يُفضّلون خير من هذه الطائفة والين جانباً، وأخشع قلباً، وأتقى لله عز وجل، وأذكر للمعاد، وأنفق بالثواب والعقاب، وأفلق من الهفوة، وأنود بالله من صغير الذنب، وأرجع إلى الله بالتوبة، ولم أر متكلماً في مدة عمره لكي خشيه، ولا دمعت عينه خوفاً، أو أقلع عن كبيرة رغبة، يتناظرون مستهزئين، ويتجالدون متعصبين، ويتلاقون متخادعين، ويصنّفون متحاملين، حدّ الله عروقهم، واستأصل شأفتهم، وأراح العباد والبلاد منهم، فقد عظمت البلوى بهم، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم، ودنا داؤهم

[1] المصدر السابق، ج ١، ص ٥

وعسر دواؤهم وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضعا وساكنه متجعجعا[1]...»[2]

ونحن هنا لا نناقش صواب أو خطأ هذا الذي قال به التوحيدي، وإنما نسوقه تنبيها على خطأ، بل وغفلة الذين تحدثوا عن اعتزاليته وعقلانيته، واشتغاله بالفلسفة وعلم الكلام. فالرجل يفضل منهاج «أصحاب الحديث أنصار الأثر» على منهاج «المتكلمين»، بل ويتهم المتكلمين في دينهم، قائلا: «من طلب الدين بالكلام ألحد».

ويتمنى استئصال شأفتهم، وإراحة العباد والبلاد منهم، حتى لكأنه نوح الذي يدعو الله ألا يذر على الأرض منهم ديّارا.

فأنى تكون للرجل صلة بالاعتزال والكلام والفلسفة والعقلانية؟! إن قراءة آثار التوحيدي، ووعي دلالات إضافاته واستنباطاته هو الفيصل في تحديد موقعه من تيارات الفكر. وليست أحكام كتاب التراجم والطبقات، تلك التي تلونت بالعصبيات المذهبية لأصحابها، ثم تناقلها اللاحقون عن السابقين، حتى ابتلع طُعمها كتابنا المعاصرون!

(١) متجعجعا: أي ضاربا بنفسه الأرض من الوجع.
(٢) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ١ ص ١٤٢

وهل كان متصوفا ؟:

لقد كانت بداية الحديث عن علاقة أبي حيان التوحيدي بالصوفية والتصوف، انطلاقا من كلمتين ذكرهما ياقوت الحموي، وهو يترجم له، عندما قال - وهو يعدد أوصافه - «... وشيخ الصوفية»[1]. وتناقل الذين كتبوا عن التوحيدي هذا الوصف دون تحقيق - في التراجم القديمة - واستناد - في بعض الدراسات المعاصرة - إلى كتابه (الإشارات الإلهية) الذي تشيع فيه الأدعية الصوفية..

لكننا نلاحظ أن ياقوت الحموي، الذي وصف التوحيدي بأنه «شيخ الصوفية»، هو ذاته الذي تحدث عنه باعتباره «رئيس جماعة من المتسولين السياسية»[1]. كما وصف خُلق التوحيدي بالأوصاف التي تنفي عنه أية علاقة بحقيقة التصوف والصوفية الحقيقيين، فضلا عن أن يكون شيخهم. وذلك عندما قال كلماته المعبرة: «... وكان التوحيدي محمولا على الغرام بثلب الكرام»، ثم إنه - ياقوت - هو الذي حكى من علاقات التوحيدي بالدنيا ومتاعها والحياة وعرضها ما يناقض كل التناقض وأشده مع نهج الصوفية والمتصوفين!

فما هي حقيقة هذا الموضوع ؟!

لو كان التوحيدي شيخا للصوفية، أو حتى من أهل التصوف لترجمت له كتب الصفات التي ترجمت للصوفية. لكن هذه الكتب قد خلت تماما من أي ذكر لأبي حيان.

ثم إن أخلاق الرجل وصفاته، التي وصفه بها واحد من أبرز

(١) (معجم البلدان) جـ ١٥ ص ٥

علماء عصره ، وهو الشيخ أبو الوفاء المهندس البورجاني - الذي أحسن إلى التوحيدي كما لم يحسن إليه أحد من عارفيه ، وصبر على خلقه على حين انقلب عليه الكثيرون بسبب هذا الخلق فالتقطه من أوساط الدهماء والمتسولين وعوام المتسيين للصوفية ، فعينه حارسا للبيمارستان العضدي ، ثم قدمه إلى الوزير ابن سعدان ليكون مسامرا للوزير في مجلسه ، وطلب منه تدوير هذه المسامرات (الإمتاع والمؤانسة) - إن الصفات التي كان عليها التوحيدي ، والتي ذكرها له الشيخ أبو الوفاء - موجهة في عتاب قاس وهي التي سلم بها التوحيدي ولم ينكرها أو تجادل في اتصافه بها ، كلها تنفي عن التوحيدي أية أهلية للتصوف وأية علاقة بأهل هذا الطريق ..

لقد كتب إليه أبو الوفاء المهندس ، عندما رآه يتنكر لليد التي أحسنت إليه بعد أن أصبح مسامرا للوزير ابن سعدان - فقال له : « تظن بقرارتك (عفتك) وعمارتك (جهالتك وبلاهتك) وذهابك في فسولتك (ضعفك وخستك وقلة مروءتك) التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجندين (المتسولين للعطاء) الأدنياء الأردياء ، أنك تقدر على مثل هذا الحال (تتنكر للإحسان) ، وأنام منك على حسن الظن بك » [1] ؟

ولم ينكر أبو حيان التوحيدي ، في جوابه على رسالة الشيخ أبي الوفاء المهندس ، أيا من هذه الصفات التي وصفه بها والتي تكفي واحدة منها لتنفي عنه أية علاقة بالصوفية والتصوف

---

(١) وهذه الأوصاف تدل على أن مخالطة كانت للدهماء المحسوبين على الصوفية ، إن مخالطة الصوفية لا تثمر الخسة وقلة المروءة

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ١ ص ٧

وإنما زاد هذه الحقيقة تأكيدا عندما تحدث عن حبه لأعراض الدنيا، وتعلقه بمظاهرها، وحرصه على متاعها. الأمر الذي يباعد ويناقض بينه وبين التصوف وأهله - فقال: «إن هذه الفاحشة محبوبة، والرفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة محظوظة، والدنيا حلوة خضرة، وعذبة نضرة. وترك خدمة السلطان غير الممكن، ولا يستطاع إلا بدين متين، ورغبة في الآخرة شديدة، وفطام عن الدنيا صعب»[38].

فهو يعلن تعلقه الشديد بزينة الحياة الدنيا ومتاعها، وسعيه للمكانة عند الوزراء بكل حيلة وبكل قوة، وافتقاره إلى الصوارف عن هذا الطريق - من «دين متين، ورغبة في الآخرة شديدة، وفطام عن الدنيا» -، وهي الصوارف التي تميز بها أهل الطريق.

والتوحيدي لا يدع مجالا للشك في «دنيوية منهاجه في الحياة» فيصرح برفضه للاعتدال المتوازن الذي يتيح للإنسان التوسط الجامع بين الدنيا والآخرة، ويكشف عن فكر غريب ينكر هذه الوسطية، عندما يقيم تناقضا كاملا بين «الدنيوية» و«الأخروية» في الوقت الذي أفصح فيه عن عشقه لمتاع الدنيا وغرامه بمظاهرها - فيقول: «وربما قال بعض المتكلفين: قد قال بعض السلف: (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه)». وهذا كلام مقبول الظاهر، موقوف الباطن. وربما قال آخر من المتقدمين: (اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا). وهذا أيضا كلام مُنمَّق، لا يرجع إلى معنى محقق. أين هو من قول المسيح عليه السلام حين قال: الدنيا والآخرة

(٣٨) المصدر السابق، جـ١ ص ١٣

كالمشرق والمغرب، متى بعد أحدكم من أحدهما قرب من الآخر، ومتى قرب من أحدهما بعد من الآخر، وأين هو من قول الآخر: الدنيا والآخرة ضرتان، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى.

وهذا الإنسان لا يستطيع أن يجمع بين شهواته، وأخذ حظوظ بدنه، وإدراك إرادته، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه[1].

فهل هناك علاقة بين هذا الموقف، الرافض للاعتدال والوسطية والتوازن الجامع بين الدنيا والآخرة، وبين موقف الصوفية الذين ولّوا وجوههم إلى الآخرة مديرين ظهورهم للدنيا؟[2]

بل إن التوحيدي الذي أفصح عن صلته للمكانة عند الوزراء «بكل حول وقوة» والذي كانت حياته ومأساته ثمرة لمما سنه هذا الاتجاه، يتوسل إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس توسلا يعف القلم عن وصفه بما يستحقه من أوصاف[3]، فيكتب إليه في ختام كتاب (الإمتاع والمؤانسة) يقول له: «لم يبق في هذه الجماعة على فقره وبؤسه، وأمره وبأسه غيري، خلصني أيها الرجل من التكفف، اشتر بي بالإحسان، اعتمد بي بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اخبرني فإنني مكسور، شهّر بي فإنني عقل، حلّني فإنني عاطل، سرّحني رسولا إلى صاحب البطائح، أو إلى ابن السؤل الكردي، أو إلى غيره ممن هو في الحسبان، أودع بي ألف درهم، فإني أتخذ رأس مال، وأشارك بقال المحلة في درب الحاجب، وتقدم إلى «كسج» البقال حتى يستعين بي في بيع الدفاتر».

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ١٥

(٢) المصدر السابق، جـ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٨

فهل هذه أخلاقيات ومقاصد وتطلعات الصوفية أهل الطريق، من أية أمة أو دين، في أي زمان أو مكان؟!

لقد كان التوحيدي «ناسخا ورّاقا»، لكنه لم يقنع ككثيرين من أعلام علماء عصره وغيره من العصور، الذين عاشوا على التكسب من نسخ المخطوطات، مع التعلم منها، وتكوين المكتبات الزاخرة بالعلوم والفنون. فسمى هذه الحرفة (حرفة الشؤم) وسعى إلى «العاجلة المحسوبة، والرفاهية المطلوبة، والمكانة عند الوزراء، وجمع الشهوات والحظوظ»، حتى ولو كان ذلك بتزييف العبيد، والمشاركة في «نقالة تدرب الحاجب» أو «بيع الدفاتر عند (كسح) النقال»؟! بل حتى لو استدعى الأمر «بيع الدين، وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه»[1].

ثم إن خُلُقه في طلب المكانة عند الوزراء «بكل جون وقوة»! قد حال بينه وبين النجاح في هذا الميدان، فانتهت كل تجاربه مع الوزراء من المهلبي (٢٩١ - ٣٥٢هـ) وزير معز الدولة ببغداد إلى أبي الفضل بن العميد (٣٦٠هـ) وزير ركن الدولة في خراسان، إلى ابنه أبي الفتح بن العميد (٣٣٧ - ٣٦٦هـ) وزير ركن الدولة في الري، إلى الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ) وزير مؤيد الدولة، وفخر الدولة، في الري، إلى ابن العارض أبي عبد الله الحسن بن أحمد بن سعدان (٣٧٥هـ) وزير صمصام الدولة في بغداد، إلى أبي القاسم المذحجي وزير صمصام الدولة في شيراز. انتهت كل تجاربه مع جميع هؤلاء الوزراء بغضبهم عليه، وفراره منهم، وطلبهم إياه. فلقد كان كما قال ياقوت الحموي «مجبولا على الغرام بثلب الكرام»!! وفي

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ١٤٣

تأمل أبعاد هذه الكلمات التي اختارها ياقوت المفتاح لمأساة هذا الرجل، الذي أراد استبدال ذات الدنيا، حتى لو اقتضت «بيع الدين وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه» بالوراقة والنسخ التي سعد بها كثير من أعلام العلماء، على حين سماها هو «حرفة الشؤم.. وتكرار ما في الكتب[1]»!!..

فهل هذا منهج صوفي؟ وهل هذه هي طريق المتصوفين من أهل الله؟!

لقد طلب التوحيدي المكانة عند الوزراء، حتى ولو كان ذلك كما قال: «بيع الدين وإخلاق المروءة»، وكان في طلبه لهذه المكانة رهن إشاراتهم في كل شيء، حتى أن الوزير ابن سعدان، يطلب إليه في إحدى الليالي أن يخوض به في بحر خلاعة وعجون، فيقول له: «تعال نجعل ليلتنا هذه مجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر، فهات ما عندك»، فيكون حصيلة أبي حيان أحد عشرة صفحة من المجون الذاعر والدعارة الماجنة، حتى لو تأملها الذين يتحدثون عن مشيخة التوحيدي للصوفية في العصر الذي عاش فيه[2]!..

أما كتاب (الإشارات الإلهية) الذي يستدل به البعض على تصوفه، فإن من دارسي التصوف من يشكك في نسبته إلى التوحيدي، انطلاقا من مخافاة منهجه في الحياة لما تعارف عليه أهل التصوف[3]، فالتصوف «تجربة حياة»، وليس نظريات تكتب ولا كلاما يقال!.

---

(١) المصدر السابق، جـ٢ ص ٤٣

(٢) المصدر السابق، جـ٢ ص ٥٠ - ٦٠

(٣) د. يوسف زيدان «التوحيدي والصوفية»، مجلة الهلال، عدد يوليو سنة ١٩٩٥م

وهل أحرق التوحيدى كُتبه؟:

فى رسالة جوابية، كتبها التوحيدى إلى القاضى أبو سهل على ابن محمد، وحفظها ياقوت الحموى، تحدث أبو حيان عن إحراقه كتبه، وبرر هذا الإحراق، وهو يرد على اعتراضات القاضى أبى سهل. وتاريخ هذه الرسالة شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ، إبريل مايو سنة ١٠٠٩م.

ولقد فهم السيوطى خطأ أن هذه الكتب التى أحرقها التوحيدى هى «مؤلفاته ومصنفاته»، و«اجتهد» للتوفيق بين هذا الفهم وبين وجود مؤلفات ومصنفات للتوحيدى، فقال: «ولعل النُّسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه فى حياته، وخرجت عنه قبل حرقها[1]». ومنذ ذلك التاريخ، ظل الذين يكتبون عن التوحيدى يسوقون هذا الفهم الخاطئ، بل الوهم الذى لا ظل له من الحقيقة، كدليل على إدانة عصر التوحيدى، الذى لجأ هذا المؤلف إلى إحراق ثمرات عقله[2]، بل وتجد نفرا من منحرفى الهوية من هذا «الفهم - الوهم» دليل إدانة للحضارة التى ضاقت بعبقرية أبى حيان! مع أن الرجل قد عاش فى عصر ازدهار الفكر الحر، والحرية الفكرية، التى جعلت مصنفاته «معرضا» لمختلف المذاهب والمقولات والمقالات!

ولعلنا فى هذا المقام نكون أول من تعرض لهذا «الفهم الوهم» بالتحقيق والتفنيد، إن الكتب التى أحرقها أبو حيان هى

---

١ ربعية الوعاة، ص ٣٤٩

٢ شبرن (دائرة المعارف الإسلامية) مادة «أبو حيان التوحيدى»، الطبعة العربية الثالثة - دار الشعب القاهرة

«مكتبته» وليست «مؤلفاته ومصنفاته».. «مكتبته» التي «جمعها»، وليست كتبه التي «ألفها وصنفها».. وهي إحدى مكتبات مرحلة من مراحل حياته، جمعها في العشرين عاما التي سبقت سنة ٤٠٠هـ أي بعد فشل تجاربه في طلب المكانة عند الوزراء. وهو قد أحرقها لأنه ليس له من الولد والأهل من يرث هذه المكتبة الجامعة، التي جمعها هذا «الناسخ الوراق» العظيم.. وأصحاب «المكتبات» يتركون مكتباتهم للورثة. أما مؤلفاتهم فإنهم يؤلفونها للناس، وليس للوارثين!.

ولقد اقتدى أبو حيان، في إحراق مكتبته، بعدد من الذين سبقوه إلى هذا الصنيع من علماء عصره. وليس منهم من ضاعت مؤلفاته بإحراقه لها، كما أن حديث التوحيدي عن صنيعهم هذا، كما سنرى في نص رسالته، قاطع بأن الكلام إنما هو عن إحراق «المكتبات»، وليس عن إحراق «المؤلفات والمصنفات».

ثم إن وجود مؤلفات ومصنفات التوحيدي، والتي لم يفقد منها إلا كتاب واحد، شاهد على صدق هذا الذي نقول!.

يتحدث التوحيدي - في رسالته إلى القاضي أبي سهل - عن الكتب التي أحرقها، فيقول: «إحراق كتبي النفيسة». والمرء لا يصف مؤلفاته بالنفاسة، وإنما يترك ذلك للآخرين. ويتحدث عن سبب هذا الإحراق فيقول: «ومما شحذ العزم على ذلك أني فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا، وصاحبا قريبا، وتابعا أديبا، ورئيسا منيبا. فشق علي أن أدعها لقوم جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد». وليس هناك في الدنيا من يؤلف لابنه أو صديقه أو صاحبه. وإنما يؤلف المؤلفون للناس، مطلق الناس. ولأنهم لابد وأن يسطروا أفكارهم على الأوراق! فالرجل هنا يتحدث عن إحراق مكتبته النفيسة، لأنه لم يكن لديه وارث يورثه إياها.

ثم هو يضرب الأمثال بمن اقتدى بهم في هذا العمل، فيضع أيدينا على ما يؤكد أن المراد هو إحراق «المكتبات» لا إحراق «المؤلفات» فيقول: «... وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يُقتدى بهم. منهم أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء، دفن كتبه في باطن الأرض، فلم يُوجد لها أثر. وهذا داود الطائي. ويقال له: تاج الأمة، طرح كتبه في البحر، وقال يناجيها: نعم الدليل كنتِ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء ودهول وبلاء وخمول. وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل، وطرحها فيه، وسد بابه، فلما عوتب في ذلك قال: دلّنا العلم في الأول، ثم كاد يُضلنا في الثاني، فهجرناه بوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل من أردناه. وهذا أبو سليمان الداراني، جمع كتبه في تنور وتجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدتُ أحرقُ بك!. وهذا سفيان الثوري، مزق ألف جزء وطيرها في الريح وقال: ليت يديّ قطعت من هاهنا، بل من هاهنا، ولم أكتب حرفاً. وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي، سيد العلماء، قال لولده محمد: لقد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تحولك فاجعلها طعمة للنار[1]».

وجميع هؤلاء الأعلام الذين اقتدى بهم التوحيدي في إحراق «مكتبته»، قد أحرقوا أو دفنوا أو أغرقوا «مكتباتهم» وليس «مؤلفاتهم ومصنفاتهم».

فأبو عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤هـ، ٦٨٩ - ٧٧٠م) «قد روى عن العرب الفصحاء كتباً ملأت بيتاً له إلى قريب السقف واتفق له أن تنسك، فأخرج هذه الكتب وأحرقها أو دفنها في باطن الأرض

(١) (معجم الأدباء) جـ ٥ ص ٢٧

فلما رجع إلى علمه الأول، لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه».

ولقد ذكر له ابن النديم - في (الفهرست) - كتابا في القراءات، وعدة كتب أخذت عنه، منها (كتاب النوادر عن أبي عمرو بن العلاء) و (كتاب قراءة أبي عمرو، لابن مجاهد) و (كتاب ما خالف فيه ابن كثير أبا عمرو) لابن شنبوذ، و (كتاب الفصل بين أبي عمرو والكسائي) و (كتاب الخلاف بين أبي عمرو والكسائي) لأبي طاهر عبد الواحد البغدادي. وله متفرقات، في الشعر والشعراء، واللغة، والنحو، متفرقة في كتب الأدب والطبقات[1].

فالذي أحرقه أبو عمرو بن العلاء هي «المكتبة التي ملأت بيتا إلى قريب السقف»، وليست المؤلفات والمصنفات.

وتاج الأمة، داود الطائي، قد طرح في البحر - عندما تنسك وتصوف - الكتب التي يجدها «دليلا» فكرنا له، وذلك بعد أن «وصل» إلى «الحق» - سبحانه وتعالى - ولم تعد له حاجة إلى «الدليل». ومعنى هذا أن الحديث إنما كان عن الكتب التي كان يستدل بها ويرجع إليها، وليس عن المؤلفات والمصنفات.

وما يخلص منه يوسف بن أسباط كان «مكتبته»، التي احتاجت إلى «عار في جبل طرحها فيه، وسد بابه». وليس هذا بالوصف لمؤلفاته ومصنفاته. ثم هو - عندما عوتب في ذلك - تحدث عن أنه إنما دفن «الدليل»، أي المراجع والمصادر، وليس المؤلفات التي ألفها.

والذي مزقه سفيان الثوري، وطيّره في الريح، هو «مكتبته» التي بلغت عدة أجزاء كتبها ألف جزء. ولم يقل عاقل إن هذا هو رقم المؤلفات التي صنفها هذا الفقيه!.

فحديث التوحيدي إنما هو عن إحراق «مكتبته» لافتقاره لوارث

---

[1] دائرة المعارف، الفؤاد أفرام البستاني، طبعة بيروت سنة ١٩٦٢ م.

يرثها ويحافظ عليها.. وليس عن مؤلفاته ومصنفاته والشواهد التي ساقها قاطعة بأن هذا هو المراد

ثم إن الحصر الدقيق لمؤلفات التوحيدي والذي قام به واحد من أبرز المتخصصين فيه تأليفا وتحقيقا وهو الدكتور إبراهيم الكيلاني يقول لنا إن عناوين هذه المؤلفات قد بلغت خمسة وعشرين عنوانا، المحفوظ بين أيدينا الآن منها اثنا عشر كتابا، هي أهم وأكبر مؤلفاته، ومنها اثنا عشر كتابا اطلع عليها المؤرخون وكتاب التراجم بعد عصر التوحيدي، وأثبتوا في كتبهم الكثير من صفحاتها وليس مفقودا من عناوين هذه المؤلفات إلا كتاب (النوادر) الذي ذكره التوحيدي في (المقابسات)[1] فمؤلفات الرجل لم تحرق وكانت سعيدة الحظ عندما نجا معظمها من عاديات الدهر، وما فقد منها كان فقده في عصور متأخرة، بعد أن اطلع عليها عدد من الكتاب والمؤرخين ولعل بعض هذه المصنفات «المفقودة» أن تكون ضمن ما لم يفهرس ولم ينشر من ملايين المخطوطات..

هكذا أثمر «الوعي» بنصوص التوحيدي ذاته تبديد كثير من «الأوهام» التي توارثها الخلف عن السلف، حول «عقيدة التوحيدي»، و«مذهبه» وحول ما صنف وألف من آثار

(١) د. إبراهيم الكيلاني (أبو حيان التوحيدي) ص ٣٧ - ٥١

مكانة التوحيدي بين «الرواية» و «الإبداع»:

إن مفتاح فهم المكانة الحقيقية للتوحيدي، بين معاصريه، وفي تراثنا العربي الإسلامي، هو إدراك «الحرفة» التي احترفها، و«الموهبة» التي امتلكها. فلقد كان الرجل «ناسخاً وراقاً»، أتاحت له حرفته هذه أن يعيش في كنوز الفكر ويطلع على ثمرات العقول، ويعايش أكابر العلماء والمبدعين في مختلف العلوم والفنون، ومن كل الفلسفات والديانات. وكان صاحب موهبة أدبية وملكة فنية، أعانته على التقاط الجواهر من بطون الكتب وأفواه العلماء، بل واستخراجها بالأسئلة التي كان يثيرها ويلقيها على كثير من هؤلاء العلماء المبدعين. وعلى أن يصوغ الكثير من هذه الأفكار بالأسلوب البلاغي الذي اقتفى فيه أثر الجاحظ (١٦٣-٢٥٥هـ، ٧٨-٨٦٩م) فهو «راوية» محقق، ينسب الأفكار لأصحابها، وينبه على مواطن أصدقائه واستنباطاته، ومواطن الرواية والنقل والإملاء، على نحو يجعل منه «محققاً» بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح أكثر مما هو «مبدع ومبتكر وخلاق».

أما مأساة الرجل، فهي «خُلُقه» الذي جعله يتمرد على حرفة «النسخ والوراقة»، وهي التي عاش منها أعلام كثيرون، منهم الجاحظ والسيرافي وأبو علي مسكويه وياقوت الحموي، وتطلّعه إلى صحبة الأمراء والوزراء، «كعالم مبدع»، وليس «كناسخ وراق».

ذلك هو مفتاح فهم حقيقة مكانة التوحيدي، وسبب المأساة التي صاحبته، كظله، حتى انتقل إلى رحمة الله.

كان الصاحب بن عباد (٣٢٦-٣٨٥هـ، ٩٣٧-٩٩٥م) أبرز وزراء عصره، ومن أبرز أدباء وعلماء ذلك العصر أيضاً، وكانت له رعاية للعلم والعلماء. ولقد دخل أبو حيان التوحيدي إلى محيط

الصاحب كناسخ برسائل الصاحب ومؤلفاته، وللمخطوطات التي يريد ضمها إلى مكتبته. وعندما أراد التوحيدي القيام بالنسبة للصاحب بدور «الناقد» صاحب «الرأي»، الذي يبسط في مؤلفات ابن عباد، ويختار منها، فتطلع إلى دور غير دور «الناسخ الوراق» كانت عصبة الصاحب عليه، وتوعده إياه. فهرب التوحيدي من دائرة نفوذه، ونحا بنفسه، تاركا حتى أجره على ما نسخ من مخطوطات!..

والتوحيدي يحكي هذا السبب لغضب ابن عباد عليه، فيقول: إن خادم الصاحب ابن عباد، وناظر خزانة كتبه «نجاح» قد جاء إلى التوحيدي «بثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب، وقال:

يقول لك مولاي: انسخ هذا، فإنه قد طلب منه بخراسان.

فقلت: بعد ارتياع (من ضخامة المجلدات الثلاثين المراد نسخها): هذا طويل، ولكن لو أذن لي خرجتُ منه فقرًا كالغرر، وشذورًا كالدرر..»

أي أن التوحيدي أراد الانتقاء من كتابات ابن عباد، موحيًا أن فيها ما يستحق النسخ والإبقاء عليه وفيها ما ليس بغرر ولا درر.

ثم يواصل التوحيدي رواية الواقعة فيقول: «فرفع (الخادم نجاح) الأمر إليه، وأنا لا أعلم، فقال - (الصاحب):

طعن في رسائلي وعابها، ورغب عن نسخها، وأزرى بها، والله لتنكرن مني ما عرف، وليعرفن خطه إذا انصرف..» ثم يعلق التوحيدي على غضب الصاحب، فيقول:

- «حتى كأني طعنت في القرآن!..»[1]

---

(1) مثالب الوزيرين، ص ٣٢٥، نظر د. إبراهيم الكيلاني، التوحيدي، ص ١٠٢، ١٠٣.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت مأساة أبي حيان مع الصاحب بن عباد، لأنه تطلع إلى ما هو أرقى من وظيفة «الناسخ الوراق»[1]. وبدأ هجاء التوحيدي للصاحب، وشرع قلمه - الذي كان ريشة فنان - يصور للصاحب الصور التي شوهت صورته - والتي عناها ياقوت الحموي عندما وصف أبا حيان بأنه كان «مجبولا على الغرام بثلب الكرام»[2]. ولقد هرب التوحيدي من دائرة سلطان الصاحب - في الري - وعاد إلى بغداد، متحدثا عن سوء معاملة الصاحب له، و«الحرمان المر، والصد القبيح، واللقاء الكريه، والجفاء الفاحش، والقدع - (الزجر) - المؤلم، والمعاملة السيئة، والتغافل عن الثواب على الخدمة، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة، والتجهم المتوالي عند كل لحظة ولفظة»[3].

وفي بغداد لقي الشيخ أبو الوفاء المهندس - وكان مقدما في العلوم الطبيعية - فعينه حارسا في «البيمارستان العضدي»، ثم رشحه لنسخ (كتاب الحيوان) للجاحظ، بطلب من الوزير ابن سعدان، قائلا له: إن الوزير «سيكتبك (كتاب الحيوان) لأبي عثمان الجاحظ، لعنايتك به، ولوفرك على تصحيحه»[2]. فبدأت علاقته بابن سعدان «ناسخا وراقا»، ثم استدعاه من حراسة البيمارستان، ليكون - مع النسخ والوراقة - مسامرا للوزير.

ويشهد الشيخ أبو الوفاء المهندس البوزجاني - في حواره مع التوحيدي - مع تسليم التوحيدي بهذه الشهادة - وأبو الوفاء واحد من القلة الذين أحسنوا إلى التوحيدي، ولم ينقلب عليهم أبو حيان بالهجاء! - يشهد الشيخ أبو الوفاء على أن مكانة التوحيدي

(١) (الإمتاع والمؤانسة) جـ١ ص ٣، ٤

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ٥

كتب أولا وفي الأساس وقبل أي شيء آخر هي مكانة «الناسخ الوراق»، الذي حباه الله ملكة أدبية وفنية وبلاغية أتاحت له ذوقا وتذوقا لاختيار أجياد من النصوص والروايات والمأثورات التي ينسخ مخطوطاتها، وأنه لم يكن من علماء تلك الفنون التي روى عن أعلامها فيما سامر به أو صنفه من مصنفات.

ففي رسالة كتبها أبو الوفاء إلى التوحيدي وأثبتها التوحيدي مصدقا على ما جاء فيها، ينبهه وهو بوصية بتأوين مسامرته مع الوزير ابن سعدان، ينبهه إلى أنه ليس من علماء البلاغة والإنشاء، فيقول له: «وكل من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب فإن صناعتهم تُفتقر فيها أشياء يُؤخذ بها غيرهم، ولست منهم فلا تتشبه بهم، ولا تجر على مثالهم، ولا تنسج على منوالهم، ولا تدخل في غمارهم، ولا تُكثّر بنياضك سوادهم، ولا تُقابل بفكاهتك براعتهم، ولا تحدث بيدك رشاءهم، ولا تحاول بباعك مطاولتهم، واعرف قدرك تسلم، والزم حدك تأمن، فليس الكوذن (الفرس الهجين) من العتيق - (الكريم) في شيء»!

وفي جواب التوحيدي على رأي أبي الوفاء هذا، يعترف بأن هذا الكلام هو «ما يُعرف الحق فيه، ويستبين الصواب منه... وهو كلام المرشد الناصح[1]...»!..

ومع إحسان أبي الوفاء المهندس إلى التوحيدي، شعر أبو الوفاء بخيانة التوحيدي لعهده، ظنا منه أن علاقته بالوزير ابن سعدان تغنيه عن الوفاء لمن أحسن إليه وأوصله إلى هذا المقام، فكتب أبو الوفاء إلى التوحيدي يذكره بمكانته ووظيفته، ويحذره من تجاوزه قدره وتعديه حدوده، فقال مخاطبا إياه: «إنك تخلو بالوزير

(١) المصدر السابق، ج١، ص ١٠، ١١

لبالي متتابعة ومحتشمة ، فتحدثه عما تحب وتريد ، وتنهى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقعة بعد الرقعة ، ولعلك في غرض دنيء تعدو طورك بالتشدي وتغور حدك بالاستعفار ، وتتطاول إلى ما ليس لك ، وتغمط في نفسك وأنت عرّ لا هيبة لك في لقاء الكبراء ، ومحاورة الوزراء وهذه حين تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك وإلى مراس سوى مراسك ، ولسنة لا تشبه سنتك ، وتعجب أنك مع هذه الحلة ، تضل الهدى مطلوبه عني ، وحاقه دوني ، وأنت قد بعت العاجلة ودع نقد وملكت الكناية ناس الغمار ، وقد انقطعت حبالك عني وعمن هو دوني ، ووقع العي عن جدي وكلامي ولصقي وتوصيني ، وجهدك أن من قدر على وصوت يقدر على فصول (حر وجد) وأن من صعد بك حين أراد ، ينزل بك إذا شاء ، وأن من نحس فلا تشكر ، تجتهد في الاقتصاد حتى تقصر أنظن بعزائب (عقيب) وعصائب جهيد وبلاهيد) ودهس في فوسيد (حميد وقمة مروءتك) أني أكسيهم بمحاسنه الصوفية والغرباء ومحمديين الأدباء الأدباء أنك تقصر على مثل هذه الحال ، وأنام منك على حسن ظن بك؟ هيهات ! »

ففي هذا «التعتاب» «صدر» و«لا يدر» «لمعتب» «تمتمة» «لموحيدي على مكانته ، ودعوة له كي لا يتجاوز قدره «اعرف قدرك تسلم ، واترم حدك تأمن»!

فما كان من التوحيدي إلا أن أجاب أبا الوفاء «أنت موسى وأنا عيسى ، وأنت هرون وأنا مؤثر ، وأنت مُمْتَثِل وأنا مُمْتَثَل ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة ، وأنت مُنْشِئ وأنا مُنْشَأ ، وأنت أول وأنا آخر ، وأنت مأمون وأنا آمل ؟ »[1] فعاد أدراجه إلى موقع «المسامر» «الملقاة» «الناسخ ، الوراق» .

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٥ - ٧

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٨

وفي مسامرة بين الوزير ابن سعدان والتوحيدي، سأله الوزير: «لم لا تُداخل صاحب ديوان، ولم ترضى لنفسك بهذا اللبوس؟»

فقلتُ (التوحيدي): «أنا رجل حب السلامة غالب علي، والقناعة بالطفيف محبوبة عندي.

فقال (الوزير): كَنَّيْتَ عن الكسل بحب السلامة، وعن الفسولة - (الخسة) - بالرضا باليسير.

قلت (التوحيدي): إذا كنتُ لا أصل إلى السلامة إلا بالفسولة، ولا أتطعَّمُ الراحة إلا بالكسل، فمرحبًا بهما»[1]

وهو اعتراف من أبي حيان بموقعه ومكانته وقدراته في الأوساط الاجتماعية التي عاش فيها. وإذا كان الرجل قد مدّ عينيه إلى ما وراء مكانه «بناسخ الوراق»، فلقد كان هذا حقه الذي يؤهله له قدراته الأدبية والفنية والبلاغية. لكن يبدو أن خُلُقه هو الذي حال بينه وبين احتلال مكانته بين العلماء!

والقارئ للتوحيدي يحترم أمانة الرجل عندما ينسب الآراء التي ينقلها والمأثورات التي يرويها والأفكار التي يسامر بها والنصوص التي يؤلف بينها إلى أصحابها، بل وينبه على أنه ليس من أهل الفلسفة، وهو قد جمع فيها مؤلفات، فهو يصف عمله في كتاب (المقابسات) وهو ديوان في فلسفة عصره، بأنه «تصنيف أشياء من الفلسفة، رويتها عن مشائخ العصر الذي أدركته والزمان الذي لحقتهم فيه[2]» «فالفلسفة موقوفة على أصحابها، لا تزاحمهم عليها، ولا تماريهم فيها[3]»

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٤

(٢) (المقابسات) ص ٥٤

(٣) (الصداقة والصديق) ص ٥٦

كتاب الإمتاع والمؤانسة:

في هذا الكتاب الذي هو من أكبر كتبه والذي يبلغ الصفحات المطبوعة لأجزائه الثلاثة قرابة السبعمائة صفحة تمتلئ صفحات الكتاب بأسماء وصفات أصحاب النصوص والأفكار التي رواها ونقلها وأخبارها التوحيدي والتي تكوّن نحوا من ٩٠٪ من صفحات هذا الكتاب فهذه الصفحات مليئة بقول التوحيدي

«قال الأول وقال ذو الرمة وقد أخذ القطامي في قوله وقال بعض السلف ثم رويتُ أن عبد الملك بن مروان قال وقال عمر بن عبد العزيز وسمعت أبا سعيد السيرافي يقول وقال سليمان بن عبد الملك وحدّثنا ابن سيف الكاتب الراوية قال وقال أبو سليمان السجستاني وقال لي الدارقطني وحدثنا البصري أبو عبد الله ثم قرأتُ عليه (الوزير ابن سعدان) نوادر الحيوان، وغرائب ما كنتُ سمعته ووجدته وأنشدته لأعرابي قديم وقال بعض الفلاسفة وقد أملى علينا أبو سليمان كلاما في حديث النفس، هذا موضعه، قال وسألت أبا سليمان عن السكينة ما هي؟ فقال وحكيتُ عن ابن يعيش الرقي فصلا سمعته يقوله في الممكن لا بأس برسمه في هذا الموضع وقال جرير وقال فيلسوف يوناني وقال أفلاطون وقال أوميروس وقال بكساغورس وقال ديوجانس وقال سقراط وقال مقاريوس وقيل لفيثاغورس فقال وحكى لنا أبو سليمان أن أرسطوطاليس كتب وقيل لاسقليبيوس فقال وقال غالوس وذُكر للاسكندر فقال وقال أبقراط وقال أبو الحسن العامري وقال الحكماء الأولون وقال أبو الأسود وقال ابن الكلبي

وقال عمر بن الخطاب. وقال صاحب التاريخ: وهذا آخر ما
كتبتُ عن علي بن عيسى الرماني. وقال الوزير: ابن سعدان!
هات، قلتُ: إن الكلام في النفس صعب، وأنا إلى ما أحفظه
وأرويه. قال بعض الفلاسفة. وقال الوزير: ما تحفظ في نفعان
ونفعان؟ قلتُ: قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام. واسم
(الوزير) يجمع كلمات نوع، فصار جوامع، فكتبتُ إليه أشياء
كنت أسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مر الأيام في السفر
والحضر من ذلك. وقال (الوزير) ليلة: أحب أن أسمع
كلاماً في مراتب النظم والنثر. فكان الجواب: أقول ما وعيته عن
أرباب هذا الشأن، والمنتمين لهذا الفن. وجرى مرة كلام عن
الممكن، فحكيتُ عن ابن يعيش الرقي فصلاً سمعته يقوله: لا
بأس برسمه في هذا الموضع. قال. وقال (الوزير) مرة أخرى:
اكتب لي جزءاً من الأحاديث الفصيحة المفيدة. فكتبتُ: قال
مالك بن عمارة اللخمي. وقال القعقاع بن عمرو. وقال عتبة
ابن المنذر السلمي. وقال جعفر بن أبي طالب. وسأل
(الوزير) مرة عن المعنى إذا رسله الجرائم يجب أن يكون ألذ
وأطيب وأحلى وأعذب؟ فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال
في جواب هذه المطالب. وقال (الوزير): فما للعقل في
ذلك؟ قلتُ: قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان في
مذاكرته لابن حمار. وذكر. وجرى حديث القبيلة ليلة
فحكيتُ أن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا. وقال (الوزير):
سراويل، تذكر؟ أم تؤنث؟ وتصرف أم لا؟ فكان الجواب: إن
علي بن عيسى حدثنا عن شيخه ابن السراج قال: هكذا قال لنا
السيرافي، وقد قرأت عليه هذه الفقر كلها، وإنما جمعتها للوزير بعد
إحكامها وروايتها. قال (الوزير): ما أحسن ما جمعت

وكتاب المقابسات:

[illegible] ... [illegible] ... [illegible] ... [

الكهانة فتصرف في الجواب ومقدار الحاصل منه أثبته في هذا الموضع، خوفاً من أن يذهب نسياناً» وفي الخامسة والستين «هذه مقايسة يذكر فيها نوادر سمعناها في الفلسفة العالية من أبي سليمان» وفي السادسة والستين «ويذكر في هذه المقايسة حكمة سمعناها من أخبرني أبي الحسن وغيره» وفي الثامنة والستين «هذا آخر ما فهمناه عن أبي سليمان في هذا الفصل» وفي المقايسة السبعين «وتكلم أبو سليمان في التوحيد بكلام طال ودق وصفّيتُ هذا المقدار بعد استفهام كثير، ومراجعة شديدة، لأن الإشارة غامضة، والإيماء خفي» وفي المقايسات الثالثة والسبعين والرابعة والسبعين والثامنة والسبعين والتاسعة والسبعين «وأملى عليّ أبو سليمان فقال» وفي الثانية والثمانين «وأملى أبو سليمان على جماعة كنت أحدهم سنة إحدى وسبعين وثلثمائة» وفي التاسعة والثمانين «يذكر في هذه المقايسة أشياء سمعناها من أبي سليمان، في مجالس الأنس، إن لم تكن من صور الفلسفة، فإنها لا تخرج من جملتها» وفي المقايسة التسعين «هذه مقايسة تشتمل على كلمات شريفة، من كلام أبي الحسن العامري، علقت وسمعت أكثرها منه، وهي التي مرت في شرحه لكتابه الموسوم بالنسك العقلي» وفي الحادية والتسعين «ليس لي في جميع فنون هذه المقايسة إلا حظ الرواية عن هؤلاء الشيوخ» وفي السابعة والتسعين «هذه مقايسة قد أفدناها من مواضع مختلفة، في أعيان كلام الأوائل، بالترجمة المنقولة إليها» وفي المقايسة الواحدة بعد المائة «إنما يبعثني على

وكتاب الصداقة والصديق:

الذي يقترب صفحاته المطبوعة من الخمسمائة صفحة جميعه نقول ومأثورات اختارها التوحيدي ورواها وألف بينها من المنظوم والمنثور، ويندر أن نجد له في هذا الكتاب بضعة أسطر يسأل فيها سؤالا ويعلق بها على بعض هذه المأثورات. وهو ذاته يقرر هذه الحقيقة في مقدمته لهذا الكتاب، فهي مأثورات «جمعها ممن تقدم» من الشعراء والأدباء والفلاسفة والعلماء بناء على طلب الوزير ابن سعدان قبل أن يلي الوزارة. يقول التوحيدي في تقرير هذه الحقيقة: «وكان سبب إنشاء هذه الرسالة في الصداقة والصديق أني ذكرت شيئا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله، قبل تحمله أعباء الدولة، فقال لي ابن سعدان: دوّن هذا الكلام وصله بصلاته مما يصح عندك لمن تقدم، فجمعت ما في هذه الرسالة».

وبذلك فإن فقرات هذا الكتاب جميعها مسبوقة بهذه العبارات: أنبأنا، وسمعت، وقال، وحدثني، وكتب، وكتب آخر، وقال فيلسوف، وقيل لفيلسوف فقال، وحكى، وسئل فقال، وروى، وقرأت، وكتب إلى صديق له، وقال كاتب، وقال شاعر، وقال آخر، وقال بعض السلف، وقال أعرابي، وقالت أعرابية، وقال رجل لعمر بن الخطاب، وقال الراجز، وقد ورد، وأخبرنا، وحدثنا، والعرب تقول، وقال في رسالة أفدناها، وذكر أعرابي، وقيل لأعرابي فقال، وأنشدنا.. وأنشدني منشد.. وحُدِّثتُ أن رجلا قال، وقال

(١) المصدر السابق، ص ٩، ١٠

بعض المتقدمين ووقع إلى رجل وقال كاتب ولكاتب وقال حكيم وقال شاعر قديم وقلت لأبي سليمان فقال

وكان كلامه أكثر من هذا، لكني أوجزته، لأن الرسالة قد طالت، وأخاف أن تُمَلّ عند القراءة، وينسب وضعها إلى سوء الاختيار وأروي ها هنا ذُراوة (نتفا متفرقة) من كلام أرباب الحذق والخرق (الحُمق) فإن فيه فائدة حسنة لا أرى الإضراب عنه ولا الإخلال به ورويت هذا الخبر (عن ابن عباد وأصحابه وابن العميد وأصحابه) على ما اتفق، وكنت أطلب له مكانا منذ زمان، فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق..»

هكذا تقوم صفحات كتاب (الصداقة والصديق) مثلها مثل صفحات (الإمتاع والمؤانسة) و(المقابسات) ونصوص التوحيدي في هذه الصفحات، شاهدة على أن الرجل إنما كان راوية وجامعا ومختارا ومحققا، أكثر منه مبدعا ومنشئا ومبتكرا!

* * *

ومن هنا تأتي غرابة أمر دارسيه الذين لم يسبهوا إلى هذه الحقيقة، فساروا على منوال كتاب التراجم القدماء، فأضفوا عليه صفات «الفلسفة» و«الكلام» وعقدوا له لواء الإمامة في الفنون التي كان راوية لأفكار ومأثورات علمائها، بل وقالوا عنه إنه «فرد الدنيا الذي لا نظير له»!!..

وإذا شئنا أمثلة على الأخطاء التي ما كانت تتضح أو تجوز من دارسيه المعاصرين، والتي نشأت عن حملهم الروايات على «الراوي» بدلا من المروي عنه، والمأثورات على «الناقل» بدلا من مبدع هذه المأثورات، فإننا نشير إلى نماذج شاهدة على هذه الأخطاء

١ - لقد نسب الدكتور إبراهيم الكيلاني إلى أبي حيان رأيا في المقارنة بين المتكلمين والفلاسفة، وساق على ذلك شاهدا من كتاب (المقابسات) يقول: إن «طريقة المتكلمين مؤسسة على مكاتبة اللفظ باللفظ، ومقارنة الشيء بالشيء، إما بشهادة من العقل مدخولة، وإما بغير شهادة منه البتة».

وإذا عدنا إلى المصدر (كتاب المقابسات) وجدنا سياق النص على النحو التالي:

«قلت: أي التوحيدي لأبي سليمان: ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة؟».

فقال: أي أبو سليمان السجستاني: «طريقتهم مؤسسة على مكاتبة اللفظ باللفظ... إلخ... إلخ».

فالكلام والرأي والموقف هو لأبي سليمان السجستاني، الذي كان فيلسوفا، ناقد المناهج المتكلمين، وليس للتوحيدي، الذي لم يكن متكلما ولا فيلسوفا!

٢ - وناشر كتاب (الصداقة والصديق) يقول: «ولقد نبه أبو حيان على رأيه في الصداقة فقال:

«لقد صحبت الناس أربعين سنة، فما رأيتهم غفروا لي ذنبا، ولا سترو لي عيبا، ولا حفظوا لي غيبا، ولا أقالوا لي عثرة، ولا حموا لي عثرة، ولا قبلوا مني معذرة، ولا فكوني من أسر، ولا جبروا لي من كسر، ولا بذلوا لي من نصر[٢]».

فإذا رجعنا إلى نص التوحيدي، نجده راويا لهذا النص عن «حميد

١) (المقابسات) ص ١٦٩

٢) مقدمة الناشر، ص

بن مرة في الزمان الأول» عندما عبرت الناس «وعوتب في ذلك، فقال: لقد صحبت الناس أربعين سنة ... إلخ ... إلخ».

فالقول لجميل بن مرة، وليس للتوحيدي. والتوحيدي كان محققاً في نسبة النصوص إلى أصحابها أكثر من دارسة المحدثين، [illegible]

والغريب أن يقع في هذا الخطأ من يعلم أن كتاب (الصداقة والصديق) قد أتمه التوحيدي سنة ٤٠٠هـ سنة ١٠٠٩م، أي بعد صحبته للناس نحو من تسعين عاماً، وليس أربعين عاماً، كما هي حال صاحب النص جميل بن مرة، الذي روى التوحيدي عنه هذه العبارات - !

٣ - والدكتور عفيف البهنسي يورد نصاً من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) مستشهداً به على تصور التوحيدي «للصورة الإلهية غير المشبهة»، فإذا عدنا إلى المصدر، وجدنا هذا النص من [illegible] أبي حيان التي نقلها عن أبي سليمان السجستاني[2].

ويورد نصاً آخر من ذات الكتاب، مستشهداً به على تصور التوحيدي لـ «وصف الصورة الإلهية»، فإذا ما عدنا للمصدر، وجدنا هذا النص هو الآخر لأبي سليمان السجستاني، وليس لأبي حيان[3]!

ويورد نصاً ثالثاً من ذات الكتاب، يجعل له عنوان «نموذج من

---

١) (الصداقة والصديق) ص ١٠.

٢) انظر (فلسفة الفن عند التوحيدي) ص ٩٣، ٩٤ [illegible] والمؤانسة جـ٣ ص ١٣٤، ٣٥.

٣) انظر (فلسفة الفن عند التوحيدي) ص ٥٦ [illegible] (الإمتاع والمؤانسة) جـ٣ ص ١٣٧.

[illegible] أبي حيان، [illegible] إلى المصدر، وجدنا هذا [illegible] سماعيات [illegible] واستنباطاته، وليس من [illegible] حتى يكون «نموذجا» لأدبه[1].

[illegible] مجرد نماذج للأخطاء التي وقع فيها [illegible] «الوعي و[illegible]» [illegible] القراءة [illegible] ومؤلفات [illegible] في [illegible] وفي [illegible] وراء القدماء من كتاب التراجم والمؤرخين.

* * *

لكن [illegible] لا يمكن أن نعد «اختيارات» أي حياة [illegible] وألف بينها وصنفها [illegible] معبرة عن «موقف فكري» واختيار المرء قطعة من عقله [illegible] كما قال القدماء [illegible] هذه «الاختيارات» في باب «الإبداع»، أو نقف على [illegible] من بابه[2].

[illegible] لا نميل إلى الإجابة على هذا [illegible] بالإيجاب [illegible] الاختيار، إنما يكون «موقفا» إذا كان «استشهادا» يسوقه المستشهد به على صدق رأيه ويستدل به على موقفه وإبداعه وتنكره. وليس هذا هو حال التوحيدي في «الاختيار»، فالرجل يروي وجهات النظر المختلفة على ألسنة أصحابها، فتثبت نصوص المناظرة بين نظار النحو العربي، المنحازين إلى المنهاج الإسلامي، وبين نظار المنطق الأرسطي، المنحازين إلى المنهاج اليوناني [illegible] وهو يورد مقولات، حول [illegible]

[illegible] ص ٨٤، ٨٥.

[illegible]

الذين مزجوا الإسلام بالأفلاطونية والغنوصية والإشراقية .. وآراء المناطقة.. ومقولات فلاسفة اليونان، المثمانين حينا، والأفلاطونيين في كثير من الأحايين.. يورد كل ذلك منسوبا لأصحابه وقائليه، دون أن يكون صاحب موقف يستشهد عليه ويشهد له بهذه المرويات والاختيارات..

ومع ذلك فنحن لا نجرد اختياراته كلية من تفضيلاته ، فله في ثنايا الاختيارات أسئلة - والسؤال موقف أحيانا - وله تعليقات واستنباطات . . كما أن له - في كثير من الأحيان - جهدا كبيرا في الصياغات ، وأسلوبا فنيا بديعا في رسم الصور للأفكار والمعقولات . . وهو محقق ينبه غالبا على ما هو «نقل» و «إملاء» ، وعلى ما فيه «صياغة» ورواية بالمعنى لا بنص الألفاظ . .

ولعل الإبداع المتميز لأبي حيان إنما يتجلى في موهبة الفنان التي امتلكها . . ففي «فنه الهجائي» - وخاصة كتابه (مثالب الوزيرين) - عبقرية في رسم اللوحات التي تجسد المعاني السلبية والصفات القبيحة والحركات الهزلية التي ألصقها - أو اجتهد في إلصاقها - باثنين من أعلام علماء تراثنا - الصاحب بن عباد . . وأبي الفضل ابن العميد - . .

أما ما عدا ذلك من تأليفه وتصانيفه ، فهو فيها - بالدرجة الأولى - جامع ومصنف . . له فضل الجمع والاختيار والتأليف والتصنيف والتدوين . . ومصادره هي «الوراقة» التي احترفها ، ومجالس العلماء التي حضرها ، فتصانيفه كنز لأفكار سمعها شفاهة فكان له فضل تدوينها وحفظها من الضياع . . وذخائر جمعها من كتب ضاع الكثير منها فيما ضاع من تراث المسلمين ، وخاصة في دمار بغداد على يد التتار . .

وهو فى كل ما صنف وجمع وروى قد أقام للفكر بناء شامخا اجتهد فى الجمع والاختيار للبناته ، ومن النادر أن نجد فى هذا البناء الشامخ حشوا لا علاقة له بصناعة الفكر ، بل وعيون الأفكار ، فى عصر الازدهار الذى عاش فى بحبوحته أبو حيان . . ذلك الذى شقى بخُلُقه هو ، وليس بالعصر الذى عاش فيه ! .

الفهـــرس

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيـــــد	٣
هل كان التوحيدى زنديقا ؟ !	١١
وهل كان التوحيدى فيلسوفا ؟	١٦
وهل كان معتزليا ؟	١٨
وهل كان متصوفا ؟	٢٤
وهل احرق التوحيدى كُتبة ؟	٣٠
مكانه التوحيدى بين «الروايه» و «الابداع»	٣٥
كتاب الإمتاع والمؤانسه	٤٢
وكتاب المقابسات	٤٥
وكتاب الصداقة والصديق	٤٩

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري .
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمي هويدي
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر